الطريق من جدة إلى الطائف(*)

جون لويس بركهارت

ترجمة

الأستاذ:

موسى عبدالله مباركي**

** بكالوريوس في اللغة الإنجليزية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع أبها، ١٤١٢هـ.
- ماجستير في الترجمة من جامعة ليدز في بريطانيا، ١٤٢١هـ.
- يعمل الآن مترجماً في دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

مقدمة المترجم:

إن هذه المقالة (الطريق من جدة إلى الطائف) هي ضمن الكتاب الموسوم بـ (رحلات داخل الجزيرة العربية) لمؤلفه جون لويس بركهارت؛ يروي من خلالها وصفاً تفصيلياً إلى حد ما للرحلة التي قام بها هو ورفيقه (الدليل) بدءاً من جدة ومروراً بمكة المكرمة والمشاعر المقدسة وصولاً إلى الطائف، وقد تميز سرد المؤلف بالإمتاع والإفادة للقارئ - بالرغم من اعتماده على بعض المراجع العربية - ربما بسبب معرفته للغة العربية وقطعه المسافة بواسطة الإبل، حيث لا توجد وسائط النقل الحديثة آنذاك، مما مكنه من رؤية الأماكن والمعالم عن كثب. من خلال رصد ما شاهده. قدم المؤلف صورة لتضاريس المنطقة ومدى تباينها، حيث السير على أرض رملية ثم السهول وبعد ذلك الدخول في الأراضي الجبلية الوعرة، كذلك أظهر لنا وصفاً للاماكن والمشاعر المقدسة وما يعتري بعض المساجد من خراب

(*) Route from Djidda to Tayf by John Lewis Burkhardt. In: Travels in Arabia, Frank Cass & Co. Ltd. 1968.

وإهمال في ذلك الوقت. وبالرغم من أن المقال ضم بعض المفردات العربية التي كتبت بأحرف لاتينية وهو ما يطلق عليه (translitration) لم تكن دقيقة مثل كلمة El Kazeh أي القزح و El Mazomeyn يعني المأزمين ومفردات أخرى، مما استدعى البحث في بعض المراجع ذات الصلة مثل شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مرآة الحرمين وكذلك المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، إلا أن هناك إفادة للقراء والباحثين عموماً فيما قدمه أولئك الرحالة في مؤلفاتهم.

في الرابع والعشرين من شهر أغسطس لعام ١٨١٤ للميلاد الموافق للحادي عشر من شهر رمضان لعام ١٢٣٠ للهجرة، بدأت رحلتي من جدة في وقت متأخر من المساء يرافقني دليلي وعشرون فرداً من قبيلة حرب يقومون بقيادة الإبل التي تحمل الأموال إلى مكة المخصصة لخزينة الباشا. بعد عبورنا ضواحي البلدة - حيث تغطي الطريق أكوام الرمال ومن بينها المقبرة - سلكنا أرضاً رملية قاحلة ترتفع قليلاً نحو الشرق - ولا توجد بها أشجار - مشربة كثيراً بالأملاح على مسافة ميلين من البلدة. بعد مسيرة لمدة ثلاث ساعات دخلنا ريفاً كثير الهضاب حيث يوجد مقهى عبارة عن سقيفة بالقرب من بئر تسمى رغامة(١). استمررنا سائرين في واد فسيح وسط تلك الهضاب - بعض منها رملي والبعض الآخر صخري - ثم توقفنا قليلاً بعد خمس ساعات ونصف في المقهى وبئر تسمى البياضية، ولم تكن مياه هذه الآبار نظيفة. من هنا - وخلال ساعة ونصف (أي سبع ساعات كاملة) - وصلنا إلى مكان مشابه يسمى الفراينة حيث لحقنا بقافلة حجاج كانوا يرافقون البضائع والمؤن المخصصة

(١) **الرغامة**: أرض على مقربة من جدة، عسكر فيها الجيش السعودي في محاصرة جدة سنة ١٣٤٣/١٣٤٤ للهجرة وقد بلغها العمران الآن. الجاسر. **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**، ص٦٩٣.

للجيش، قد خرجوا من جدة قبلنا في المساء. إن المقهى عبارة عن مبنى متواضع يتكون من أسوار أوشكت على الخراب وسقف من أغصان الشجر لا يقدم به سوى الماء والقهوة. في السابق قيل إنه كان يوجد اثنا عشر مقهى على هذا الطريق تقدم كافة أنواع المرطبات للمسافرين بين جدة ومكة المكرمة، ولكن بما أننا قطعنا معظم رحلتنا في الليل وكذلك بسبب امتناع الجنود الأتراك دفع النقود مقابل ما يستهلكونه، فقد أصبحت معظم تلك المقاهي مهجورة، أما بقية المقاهي التي لا تزال موجودة فقد حافظ عليها بعض أفراد قبيلة لحيان (المنحدرة من قبيلة هذيل) وكذلك بعض أفراد المطارف ذوو الأسر البدوية ويعيشون وسط التلال مع قطعانهم. يبدأ الوادي من فراينة ويزيد ارتفاع الجبال – التي تصطف على الجانبين – بشكل كبير. بعد ثماني ساعات من السير مع بزوغ الشمس تقريباً وصلنا بحرة التي تتكون من عشرين سقيفة تقريباً، تقع على سهل يمتد على مسافة أربع ساعات طولا وساعتين عرضاً وتمتد باتجاه الشرق. في بحرة تتوافر مياه الآبار بكثرة، البعض منها عذب والبعض الآخر مالح. في صف يتكون من ثمانية أو عشرة محلات يباع فيها الرز والبصل والزبدة والتمور والبن بزيادة تبلغ ثلاثين بالمئة عنها في أسواق جدة وتلك ما يسميها العرب سوقاً وتظهر أماكن مماثلة في كل مكان في هذه السلسلة من الجبال إلى اليمن، وكان بعض من سلاح الفرسان التركي يقيم معسكراً في بحرة لحماية الطريق. بعد مسيرة لمدة ساعتين في ذلك السهل توقفنا في حدة[1] وبعد مضي عشر ساعات منذ انطلاقنا من جدة وجدنا سوقاً – مثل السوق المذكور آنفا بين بحرة وحدة – على رابية منعزلة في السهل وهو بقايا حصن قديم.

في الخامس والعشرين من شهر أغسطس تتوقف القافلة المتجهة من جدة إلى مكة

(١) حدة: من قرى الطريق بين مكة وجدة.

في أثناء النهار في بحرة أو حدة وهذا يعود إلى العادة الشائعة لأهالي الحجاز وهي السفر في المساء فقط سواء في الشتاء أو الصيف ليس القصد منها تجنب الحرارة بقدر ماهو إعطاء الإبل وقتاً لإطعامها إذ أن هذه الحيوانات لا تأكل في الليل. أن هذه المسيرات الليلية لا تفيد الرحالة الباحثين الذين يعبرون البلاد في وقت لا يمكن فيه رؤية أي شيء وفي أثناء النهار يذيب التعب والتوق إلى النوم كل مجهود.

ترجلنا في حدة تحت سقيفة أحد المقاهي الواسعة، حيث وجدت جماعة من الأتراك والعرب وهم في طريقهم من مكة أو إليها كل واحد منهم ممدد على بساطه الصغير. خلال ذلك أحضر بعض التجار من الطائف حمولة من العنب وبالرغم من أنني لا أزال أشعر بالوهن جراء الحمى إلا أنني لم أستطع مقاومة ذلك الإغراء فأمسكت ببعض منها فما أن فتحت سلال العنب حتى انقض عليها كل الموجودين ملتهمين الحمولة بكاملها في الحال وتم دفع المقابل لصاحب الحمولة فيما بعد. في حدة يُحرم أهالي جدة القاصدين مكة لأداء الحج. انقياداً للشريعة الإسلامية، كل من أراد الدخول إلى الأراضي المقدسة في مكة عليه ارتداء ملابس الإحرام سواء للحج أو العمرة ولا يجوز له خلع ملابس الإحرام إلا بعد زيارة الكعبة . الكثير من الناس يخالفون هذا التشريع، أما أهالي مكة المتدينين فلا يذهبون إلى جدة إلا ومعهم ملابس إحرامهم لكي يرتدوها عند عودتهم من جدة في هذا المكان. بعد الظهر كان يتواجد بعض من الجنود الأتراك ارتدوا ملابس الإحرام مع الشعائر المفروضة التي تتضمن الوضوء أو الطهارة الكاملة إذا كانت النية بالحج وصلاة ركعتين وكذلك ترديد عبارات دينية تسمى (التلبية)، ولأنه كان وقت حرب فقد كان الجنود يضعون أسلحتهم فوق ملابس إحرامهم.

بعد ظهر ذلك اليوم، أعد العامل بالمقهى المؤن التي أحضرتها وكذلك ما

يخص عدداً آخر من رفاقي. كان المكان يعج بالفوضى فلا يستطيع أحد أن ينام. عقب وصولنا بقليل، مرت فرقة من الجنود ونصبوا خيامهم في مكان ليس ببعيد ثم دخلوا المقهى ونقلوا كل المياه العذبة التي يتم جلبها من بئر تبعد مسافة نصف ساعة ويتم حفظها في حدة في جرارٍ ضخمة. بالنسبة لمنازل السكان البائسين - التي تتعرض للتخريب بسبب مرور الجنود المستمر - يتم بناؤها من أغصان الشجر على شكل مخروط مسطح لا ينفذ إليها الضوء إلا عبر المدخل وهنا يحتشد كل أفراد الأسرة في مكان واحد. تتكون المقاهي المتعددة من سقائف تستند على قوائم ويوجد في أحد أركانها مكان مخصص لايواء النادل. تنتشر في تلك المقاهي أعداد هائلة من الفئران التي لم أر مثلها في حياتي.

غادرنا حدة حوالي الساعة الخامسة مساءً. لا يزال الطريق ممتداً على السهل والتربة رملية تمتزج بالطين في بعض أجزائها وقد يسهل فلاحتها - كما أظن - من خلال حفر الآبار. بعد أن قطعنا مسافة ساعة من حدة شاهدنا على يسارنا في السهل بعض أشجار النخيل وهنا يتدفق - كما علمت - جدول صغير كان يروي بعض الحقول فيما مضى، أما الآن فقد أصبحت تلك الأشجار مهملة. خرجنا من السهل وانحرفنا قليلاً جنوباً من خط سيرنا الشرقي ومرة أخرى دخلنا ريفاً كثير التلال وبعد مسيرة ساعتين من حدة وصلنا مقهىً آخر يسمى الشميسي[1] يقع خلفه جبل الشميسي الذي يستخرج منه - وفقاً لمؤرخي مكة - الرخام الذي يزين أعمدة الحرم المكي الشريف، وتوجد في الجبل قرب المقهى بئر. من الشميسي انطلقنا في وادٍ مغطى بالرمال الكثيفة وتوجد به بعض الأشجار الشائكة. بعد أربع ساعات من

(١) بئر الشميسي: يقال إن الحديبية هي البئر التي تعرف ببئر الشميسي في طريق جدة.

حدة مررنا بمقهى السلم[1] وبئر والتقينا بقافلة قادمة من مكة. إن الجبال متراصة بكثرة في هذا المكان ولا توجد طريق بها سوى مجرى وادٍ ضيق تتقاطع معه عدة أودية أخرى، ثم تقدمنا إلى أن وصلنا إلى هجلة وهو مقهى يبعد مسافة سبع ساعات من حدة وعلى مقربة منه بئر كبيرة تتزود منها قوافل الحجاج السورية في طريقها من مكة أو إليها.

بما أنني لم أستمتع لحظة بالنوم منذ أن غادرنا جدة، فقد استلقيت على الرمال ونمت حتى الفجر بينما تابع رفاقي طريقهم إلى مكة ولم يبق معي سوى دليلي ولكن مخاوفه على إبله لم تكن لتسمح له بغمض عينيه. إن وجود قطاع الطرق على الطريق من جدة إلى مكة أمر مألوف ولأن جميع الناس لا تسافر إلا بالليل، فإنه يتم سلب التائهين بسهولة. بالقرب من هجلة توجد أطلال قرية قديمة بنيت من الحجر وفي الوادي آثار فلاحة قديمة.

في السادس والعشرين من شهر أغسطس - بعد نصف ساعة من هجلة وصلنا إلى مزرعة نخل صغيرة محاطة بسور ومن هذا المكان يتجه الطريق إلى مكة نحو اليمين ويدخل البلدة (مكة) عبر حي يسمى جرول . كانت التعليمات لدى دليلي هي أن نسلك طريقاً فرعياً إلى الطائف يمر في شمال مكة - يتفرع من حدة - يتقاطع مع الطريق من مكة إلى وادي فاطمة ويلتقي الطريق الرئيس من مكة إلى الطائف بعد وادي منى. قبيل أن نغادر حدة، سألني دليلي الذي لا يعرف عني شيئاً سوى أن لدي عملاً مع الباشا في الطائف وإني أديت كل الطقوس الظاهرية لحاج مسلم وكذلك إنني كنت متسامحاً معه قبل مغادرتنا، عن سبب تلقيه الأوامر بأخذي إلى الطريق الشمالي فأجبته بأنه ربما بسبب أن هذا الطريق أقصر من الآخر، فرد

(١) السلم : من قرى الجايزة بمنطقة مكة المكرمة.

قائلا: هذا خطأ، أن طريق مكة أقصر وأكثر أماناً، وإن لم يكن لديك مانع سوف نسلكه. هذا ما كنت أتمناه بالرغم من أنه تم تحذيري أن لا أظهر أي لهفة لهذا الموضوع، ثم سرنا بالطريق الرئيس برفقة المسافرين الآخرين. وبدلاً من أخذي إلى الطريق المألوف، والذي كنت سأمر من خلاله على مكة بطولها، ساربي وبدون أن أعلم في طريق مختصر وبالتالي حرمني من فرصة مشاهدة مكة كلها في هذا الوقت.

من مزرعة النخيل بعد هجلة، وصلنا خلال نصف ساعة إلى المكان الذي تخيم فيه عادة قوافل الحج السورية، وسمي المكان باسم الشيخ محمود نسبة إلى ضريح أحد الصالحين المبني وسط المكان. تطوق المكان جبال منخفضة ويبلغ طول المكان ميلين إلى ثلاثة وعرضه ميلاً واحداً تفصله من وادي مكة سلسلة من الجبال عليها طريق مقطوع بسبب الصخور. صعدنا عبر هذا الصخور وعلى قمة الجبل مررنا ببرجي مراقبة أمر ببنائهما الشريف غالب. عند نزولنا من الجانب الآخر حيث الطريق ممهدة، استطعنا مشاهدة مكة وخلال ساعة ونصف من هجلة دخلنا الحي الشرقي في مكة بالقرب من قصر الشريف (المعلم بـ ٥٠ في الخريطة) . إن الجزء الأكبر من البلدة الواقع على يميننا تخفيه - جزئيا - التواءات الوادي. لما كنت أعلم أنني سأعود إلى مكة فلم ألح على دليلي بالسماح لي برؤية مكة كاملة إذ أن ذلك سيجبرنا على العودة إلى الوراء حوالي ميلين في اتجاه معاكس لذلك كبحت فضولي وتبعته مردداً تلك العبارات التي تقال عند الدخول إلى مكة المكرمة.

بعد ذلك سافرت مرات كثيرة بين مكة وجدة في كلا الاتجاهين. إن معدل سير القافلة بطيء جداً لا يتجاوز ميلين إلا فيما ندر، بينما قطعت المسافة نفسها على ظهر حمار في ثلاثة عشر ساعة. تقدر المسافة ربما بستة عشر أو سبعة عشر ساعة سيراً على الأقدام أو حوالي خمسة وخمسين ميلاً، عند اتجاهنا إلى الجهة

اليسرى مررنا بعد مسافة قصيرة بالثكنات الكبيرة الخاصة بالشريف، وفي الضواحي المسماة المعابدة حطينا رحالنا في منزل أعرابي تصادف أن دليلي على معرفة به. في هذا الوقت كان صيام رمضان ولكن الشرع يعفي المسافرين من الصوم. قامت ربة المنزل - التي كان زوجها غائباً - بإعداد الفطور لنا الذي دفعنا لها مقابله وبقينا بالمنزل إلى الظهر ثم امتطينا إبلنا وباتجاه منزل الشريف الواقع في الطرف الشرقي من الضاحية سرنا في الطريق العام إلى وادي منى. تغطي الرمال الأودية المتمعجة - العريضة أو الضيقة منها - وتخلو تقريباً من النبات، وتوجد جبال على الجانبين تؤدي إلى منى. بعد نصف ساعة من منزل الشريف يتجه الريف قليلاً إلى اليسار وبه تمر القناة التي تمد مكة بالمياه العذبة وعلى بعد ميلين تقريباً رأينا جبلا مخروطياً يسمى جبل النور وهو من الأماكن الدينية كما سيذكر لاحقاً.

بعد ساعة و نصف وعلى جانبنا الأيمن، مررنا ببركة ضخمة مبنية من الحجر يتم تعبئتها في أيام الحج بالماء من القناة التي تمر بمحاذاتها. أعتقد أن هذا هو المكان المسمى سبيل الست[1]. أحد الأودية الفرعية بين مكة ومنى يسمى وادي محصب. يقول الفاسي - مؤرخ مكة - إنه كانت توجد ست عشرة بئراً سابقاً بين هذه المدينة(مكة) ومنى[2]. بعد أن قطعنا ساعتين وبعد أن صعدنا قليلاً في طريق

---

(١) وهو مشهور بطريق منى. والست المنسوبة إليها عمارته هي أخت الملك الناصر حسن صاحب مصر، وتاريخ عمارتها سنة إحدى وستين وسبعمائة. الفاسي. **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ص٣٣٨،ج١.

(٢) لم أجد في (**شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**) لمؤلفه الفاسي ما يؤكد ما ذكره الكاتب هنا حول وجود ست عشرة بئراً بين مكة وجدة، بل ذكر الفاسي أن بين باب المعلاة ومنى سبع عشرة بئراً. ص٣٤٣ ج١.

ممهد عبر الوادي الذي يبلغ عرضه حوالي أربعين ياردة دخلنا وادي منى. بالقرب من الطريق رأينا حقلاً صغيراً يتم ريه بواسطة بئر مالح يقوم بعض البدو البائسين بزراعة البصل والكراث لبيعه في سوق مكة. سوف أقدم وصفاً تفيصلياً فيما بعد عن وادي منى الذي يمكث فيه الحاج ثلاثة أيام بعد العودة من عرفات.

واصلنا طريقنا بين منازل منى الخربة مروراً بالأعمدة القصيرة التي يرميها الحجاج بالحصى ثم قصر الشريف وانتهينا إلى الريف المفتوح الذي يستمر باتجاه مزدلفة التي تبعد مسافة ثلاث ساعات وثلاثة أرباع الساعة من مكة. سمي بهذا الاسم (مزدلفة) مسجد صغير، وهو خرب تقريباً الآن، يوجد بالقرب منه خزان أو صهريج مياه. في هذا المكان يتم إلقاء خطبة من منبر مرتفع يلقيها إمام المسجد إلى الحجاج بعد رجوعهم من عرفات. يذكر المؤرخ الفاسي أن هذا المسجد بني عام ٧٥٩هـ بعد الهجرة، وغالباً ما يسمى المشعر الحرام ولكن، وفقاً لنفس المؤرخ، يعود هذا الاسم إلى جبل صغير في طرف وادي مزدلفة الذي يحمل أيضاً تسمية (القزح) .

من مزدلفة يوجد طريقان يؤديان إلى عرفات، أحدهما يقع إلى اليسار بمحاذاة السهل أو الوادي ويسمى ضب[١] والآخر عبر الجبال ويلتقي بالطريق السابق قرب العلمين . واصلنا السير في الطريق الرئيس في الوادي وبعد أربع ساعات وربع، تسد الجبال الطريق مرة أخرى ولا يمر بها سوى ممر ضيق يسمى المأزمين[٢] أو المضيق يستمر عبر الجبال لمدة نصف ساعة وبعدها اطلنا على سهل عرفات. بعد

(١) وهو طريق مختصر من المزدلفة إلى عرفة في أصل المأزمين من يمينك وأنت ذاهب إلى عرفة. الفاسي. **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ص٣٠١،ج١.

(٢) اللذان يستحب للحاج أن يسلك طريقهما إذا رجع من عرفة، هو الموضع الذي يسميه أهل مكة الآن المضيق بين مزدلفة وعرفة. نفس المرجع، ص٣١١.

خمس ساعات إلا ربعاً مررنا، في هذا السهل، ببركة بنيت من الحجر تسمى بير باسان يجاورها مسجد صغير. في هذا المكان يتمدد السهل إلى الشمال والجنوب، وباتجاه الشرق شاهدت جبال الطائف لأول مرة بعلوها الشاهق[1] . بعد خمس ساعات وصلنا العلمين، يوجد مبنيان حجريان على كل جانب من الطريق يبعدان عن بعضهما ثمانين إلى مئة خطوة، يجب أن يمر بينهما الحجيج في الذهاب إلى عرفات وخاصة العودة منها، بنيا من الحجارة الخشنة مكسوة بالجص الأبيض.

يقول الفاسي إنه كان يوجد ثلاثة مبانٍ فيما سبق بنيت عام ٦٠٥ للهجرة وقد سقط واحد منها وبقي اثنان أحدهما لا يزال موجوداً بالكامل والآخر نصفه مهدم. بعد خمس ساعات وربع مررنا بمسجدٍ منعزل على يميننا في وضع خرب يدعى جامع نمرة أو جامع إبراهيم بناه كما هو في وضعه الحالي، السلطان قايتباي حاكم مصر. وأصبح جبل عرفات إلى يسارنا في طرف السهل على مسافة ميلين تقريباً. واصلنا السير دون توقف في السهل المغطى بالأشجار العالية وأشجار الأقاقيا القصيرة ولا يجوز قطع أي شيء من تلك الأشجار مهما كان صغيراً ذلك إنها أرض حرام.

عند بلوغنا أطراف السهل الشرقية وصلنا بعد ست ساعات إلا ربعاً قناة مكة التي تنبع من الأرض الجبلية التي يوجد بقربها بركة صغيرة بجوارها مجموعة من الاكواخ العربية، كتلك التي في حدة، تسمى قهوة أو مقهى عرفات أغلب سكانها من قريش الذين يزرعون الخضار في وادٍ يمتد من هنا نحو الجنوب. أخذنا قسطاً من الراحة ساعات كثيرة ووصلت في الوقت نفسه قافلة من البغال والحمير قادمة من الطائف.

(١) يقول الكاتب: عند عودتي من الطائف إلى مكة، حيث لم يكن برفقتي أحد دوَّنت وصفاً للطريق أكثر تفصيلاً ودقة مما ذكر هنا ولكني فقدت ما دونته، أما ما ذكر هنا فهو ما علق بذاكرتي إضافةً إلى المذكرات التي كتبتها على عجل وأنا في طريقي إلى الطائف.

من قهوة عرفات تصبح الطريق صخرية مسدودة بالجبال تقريباً تتشابك بها الأودية التي تعبر الطريق في كل اتجاه. تنمو أشجار الأقاقيا هنا بوفرة كبيرة. بعد سبع ساعات ونصف دخلنا مرة أخرى أرضاً رملية في وادٍ يسمى وادي نعمان، حيث توجد بعض الآبار نحو الجنوب وبعض المزارع التي ترويها قبائل كباكب وريشية[1]. بعد ثماني ساعات ونصف مررنا بخيم قبيلة هذيل البدوية، حيث هاجمت الكلاب جمالنا بضراوة ووجدت صعوبة كبيرة، بالرغم من إنني كنت راكباً، في الدفاع عن نفسي من أسنانها. بعد تسع ساعات إلا ربعاً مررنا بمجموعة من الأكواخ والمقاهي تسمى شداد وآبار ذات مياه ممتازة. بعد تسع ساعات ونصف أصبح الجو غائماً وحل الظلام الدامس، مما جعلنا نفقد طريقنا في اتباع منعطفات واد جانبي وأصبحنا غير قادرين على الوصول إلى الطريق الصحيح فاستلقينا على الرمال ونمنا حتى الفجر.

في السابع والعشرين من شهر أغسطس - وجدنا أنفسنا قريبين من الطريق، وبدون توقف، بدأنا في صعود سلسلة الجبال العظيمة لمدة نصف ساعة. بالرغم من أن طريقنا من جدة إلى هذا المكان يمر بين المرتفعات والجبال إلا أننا كنا نسير على أرض مستوية باستمرارفي الأودية ونصعد تدريجياً. إن الجبال المنخفضة قلما تتجاوز الأربع أو الخمس مئة قدم وتتكون أخفض سلسلة جبال وراء جدة من الجير سرعان ما تتغير صخورها إلى صوان ونوع من الجرانيت مع الشورل (تورمالين أسود) مصاحباً بكميات كبيرة من المرو والميكا. تستمر هذه الصخورعلى طول الطريق إلى المنطقة المجاورة إلى جبل النور شرق مكة، حيث تبدأ صخور الجرانيت. علمت في مكة أن هناك جبلا جنوب حدة يستخرج منه الرخام الفاخر لتزيين

(١) **كباكب**: ينحدرون من هذيل، نسبة إلى جبل كبكب قرب عرفات الذي تقع منازلهم به. الرياشي (بنو ريشة) من هذيل، غرب وادي عرنة. الجاسر. **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**.

المسجد الحرام. تتكون الجبال في وادي منى من الجرانيت الأحمر والرمادي، وتستمر من ذلك المكان إلى هذه السلسلة العالية من الجبال، تختلط بطبقات من الأحجار الكريمة في بعض الأماكن. تتألف الجبال المرتفعة التي نصعد بها الآن مرة أخرى من الجرانيت الرمادي ووجدت باتجاه وسطها كل ألوان الجرانيت المختلطة بطبقات من الأحجار الكريمة وفي قمة الجبال يظهر الجرانيت مرة أخرى الذي تحول سطحه إلى السواد بفعل أشعة الشمس.

صعدنا طريقاً، لا يزال وعراً بالرغم من أن محمد علي باشا أمر بإصلاحه، وكان الريف حولنا قفراً تغطيه كتل هائلة من الصخور الرخوة تجرفها سيول الشتاء وهناك بعض أشجار الأقاقيا والنبق. بعد ساعة وصلنا إلى بناء من الحجارة الرخوة يسمى قبر الرفيق، وقد روى دليلي القصة التالية عن ذلك القبر: في القرن الماضي، كان هناك بدوياً عائداً من الحج. وجد بعد بوابات مكة، مسافراً كان يسير وحيداً بنفس الطريق فترافقا حتى وصلا هذا الكان معا، حيث شعر أحدهما بالمرض الشديد لم يستطع معه بالتقدم أكثر، وفي اليوم التالي ظهر الجدري على جسده. في هذا الموقف لن يتخلى رفيقه عنه، فقام ببناء سقيفتين من أغصان شجر الأقاقيا، واحدة لصديقه والأخرى لنفسه واستمر في رعايته ويستعطي الصدقات من أجل رفيقه من المارة إلى أن شفي، ولكن في المقابل أصيب بنفس المرض فقام رفيقه المتماثل للشفاء بنفس العناية معه ولكنه توفي. قام صديقه بدفنه في هذا المكان وبات ضريحه معلماً يدل على الشهامة البدوية والنزعة الخيرية حتى باتجاه الرفقةالذين تتم مصادفتهم في الطريق.

بعد ساعة ونصف، ولا نزال في الصعود، وصلنا إلى بعض السقائف المبنية وسط الصخور. قرب نبع وفير المياه - تسمى قهوة كرا نسبة إلى الجبال التي تحمل

اسم جبل كرا. وجدت في هذا المكان أحد الجنود الأتراك الذي تم تكليفه بنقل مؤن لجيش الباشا بالجبل. إن هذه الطريق تعتبر أقصر طريق من مكة إلى الطائف التي تسلكها القوافل باستمرار. يتم إنزال حمولة الإبل في هذا المكان ثم تنقل إلى أعلى الجبل بواسطة البغال والحمير التي يوجد منها حوالي مئتي رأس هنا. ومن على الجبل تقوم الجمال بنقل الأحمال إلى الطائف. يعتبر الطريق الشمالي إلى الطائف - الذي سأتحدث عنه فيما بعد - سالكاً للإبل بيد أنه أطول من هذا الطريق بمسافة يوم واحد.

تم بناء سقائف (كرا) بين الصخور على منحدر الجبل، حيث بالكاد تجد سطحاً مستويا. السكان هم من قبيلة هذيل البدوية. لا يقدم سوى القهوة والشاي في اثنين أو ثلاثة مقاهٍ. أثار الجندي التركي غضب الباشا بسرقته جملاً لإحدى نساء هذيل ثم باعه، مما دعا المرأة إلى عرض شكواها إلى سيده، الباشا، في الطائف فعاملني بكل لطف عندما عرف أنني ذاهب لزيارة الباشا وتوسل أن أشفع له لدى الباشا إلا أنني رفضت معللا ذلك بأني سأشفع لنفسي من أجل شئوني الخاصة. مكثنا إلى وقت الظهيرة في هذا المكان اللطيف الذي يطل على منظرٍ رائع للريف في الأسفل. تفيأت بظل شجرة نبق قرب نبع يصب على الصخور وأزال النسيم البارد العليل شدة الحرارة التي واجهناها منذ خروجنا من جدة. عند مغادرتنا كرا، وجدنا الطريق شاهقاً ووعراً للغاية، بالرغم من أنه تم إصلاحه مؤخراً، بحيث لا أمل للمسافر الراكب الوصول للقمة دون أن يترجل. وقد توقفنا في الكثير من الأماكن وأضحى الصعود أقل وعورة من خلال المنعطفات الكثيرة التي أوصلتنا إلى القمة، ويوجد نصف دزينة من الأماكن للراحة على جانب الجبل، حيث تتوقف فيها الإبل برهة، إذ لا يوجد مكان مستوٍ يتجاوز ثمانية أقدام مربعة. إن نفس

الينبوع الذي ينبع قريباً من القمة، يتم عبوره مرات كثيرة. قابلت كثيراً من بدو هذيل مع أسرهم وقطعانهم من الضأن قرب الطريق وقدم لي واحد منهم قليلاً من الحليب دون أخذ المقابل ذلك أن قيام البدو ببيع الحليب يعتبر فضيحة، مع أنهم قد يحصلون على عوائد مجزية من بيعه في مكة فالرطل من الحليب يساوي قرشين. تحدثت بحرية مع الرجال ومع زوجة واحد منهم. كان يدل مظهرهم على أنهم من سلالة الجبليين(أهالي الجبال) وبالرغم من أن الفقر يعتريهم إلا أنهم كانوا يتميزون بالنشاط والمتانة أكثر من بدو الشمال، وأعزو ذلك إلى المناخ الصحي ونقاء الماء. إن قبيلة هذيل، المعروفة في تاريخ الجزيرة العربية القديم، كانت تابعة اسمياً لشريف مكة، حيث كانوا يقيمون في أراضيه ولكنهم في الواقع كانوا مستقلين وكثيراً ما اشتركوا في حروب ضده.

خلال ساعتين صعوداً قطعنا المسافة من المقهى إلى قمة الجبل التي منها استمتعنا بمنظر جميل يطل على الريف في الأسفل. رأينا وادي منى، ولكن ليس مكة، وبقدرما يمتد البصر ظهرت سلاسل ملتوية من الهضاب فوق سطح مستوٍ باتجاه الجنوب والشمال مع ممر ضيق من الرمال البيضاء بينها (الجبال) دون أي منظر للخضرة. بالقرب منا ظهرت على يميننا قمة جبل كرا المسماة (نقب الأحمر) التي تعلو المكان الذي وقفنا به بمسافة تتراوح مابين أربع إلى خمس مئة قدم وتبدو أعلاها سلسلة الجبال المجاورة كلها. باتجاه الشمال، بدأ الجبل - الذي يبعد حوالي ثلاثين ميلاً - يقل ارتفاعه كثيراً أما باتجاه الجنوب فيستمر نفس الارتفاع. بعد نصف ساعة ركوباً من قمة الجبل، وصلنا قرية صغيرة تسمى رأس الكرا. عند شعوري بتعب شديد، أصررت على النوم هنا وأذعن دليلي على مضض، حيث إن الأوامر التي لديه هي إنهاء الرحلة سريعاً.

في الثامن والعشرين من شهر أغسطس - تعتبر قرية رأس الكرا وما جاورها أجمل مكان في الحجاز وأروع وأمتع من أي مكان رأيته منذ أن غادرت لبنان إلى سوريا. إن قمة جبل كرا مستوية وتنتشر كميات كبيرة فوقها من الجرانيت التي تحول سطحها - كسطح صخور الجرانيت تلك القريبة من الطوفان الثاني للنيل - إلى السواد بفعل الشمس. تنحدر جداول كثيرة من هذه القمة تروي السهل الذي تغطيه البساتين الخضراء والأشجار الظليلة الضخمة على جانب صخور الجرانيت. لأولئك الذين لم يعرفوا سوى الرمال المحرقة والكئيبة في الريف السفلي في الحجاز، فإن هذا المنظر رائع إذ أن الهواء العليل الذي يهب هنا منعش. الكثير من أشجار الفاكهة في أوربا موجودة هنا مثل التين والمشمش والدراق والتفاح والجميز المصري واللوز وأفضل أنواع الرمان. لا يوجد النخيل هنا وليس هناك إلا بعض أشجار النبق. يزرع في الحقل القمح والشعير والبصل .. وحيث إن التربة صخرية فإنها لا تلائم تلك المحاصيل مثل ملاءمتها للفاكهة. يطوق كل (بلد)، مثلما يسمي الأهالي الحقول هنا، سور منخفض وهي (البلد) ملك لبدو هذيل. حينما استولى عثمان المضايفي على الطائف من الشريف تم تخريب هذا المكان وتدمير الحقول ولم يتم إعادة بناء الكثير من هذه الأسوار بعد.

بعد عبور هذه المنطقة الفاتنة بحوالي نصف ساعة ومع بزوغ الشمس عندما كان يغطي أوراق العشب والنبات الندى المنعش وكل شجرة تنشر شذىً فواحاً، توقفت قرب أكبر الجداول، وبالرغم من أنه لا يتجاوز عرضه خطوتين إلا أنه يغذي مروجاً خضراء على ضفتيه لا تجد لها مثيلاً في مصر على ضفاف نهر النيل العظيم بكل خصوبته. أحضر لنا بعض العرب اللوز والزبيب وأعطيناهم مقابل ذلك البسكويت ولكن بالرغم من أن العنب كان يانعاً إلا إننا لم نحصل على شيء منه ذلك إن تجار

الطائف يشترونه وهو لا يزال في أشجاره ثم يصدرونه إلى مكة ويقوم جماعتهم بمراقبته إلى أن يتم جمعه، وهنا كان يعسكر أحد الجنود الأتراك ويطلق عليه لقب أغا في خيمة يقوم بإرسال المؤن التي يتم جلبها من المركز في الأسفل. لاحظت باستغراب إنه لم يتم بناء استراحة واحدة على هذا المكان المرتفع. في السابق، كان لدى تجار مكة استراحات لهم في الطائف ولكن لم يفكر واحد منهم إطلاقاً ببناء نزل صغير هنا، وهذا يبرهن مجدداً رأيي الذي أضمرته طويلاً بأن الشرقيين وخاصة العرب أقل إحساساً بجمال الطبيعة من الأوربيين. أن مياه رأس الكرا شهيرة في كافة أنحاء الحجاز لنقائها. حينما كان محمد علي (باشا) في مكة وجدة، كان يتم إرسال مياه النيل له من مصر في صفائح ضخمة بشكل منتظم، ولكن عند مروره بهذا المكان وجد أن مياهه جديرة أن يستبدلها بمياه النيل، فكان يتم إرسال جمل من الطائف لأخذ حمولة من المياه يومياً.

تنتشر منازل هذيل، أصحاب تلك البساتين، في الحقول في مجموعات تتألف كل مجموعة من أربعة أو خمسة منازل معاً. تم بناء تلك المنازل الصغيرة من الحجر والطين بعناية أكثر مما يتوقع من أيادي المحتلين العابثة. يتألف كل دار من ثلاث أو أربع غرف، يفصل كل غرفة عن الأخريات مساحة مفتوحة ضيقة تشكل بيتاً صغيراً مستقلاً. لا ينفذ الضوء في تلك المباني إلا عبر المدخل ولكنها في غاية الترتيب والنظافة ويوجد بها الأثاث الخاص بالبدو مثل بعض السجاد الفاخر والمنسوجات الصوفية والجلدية وهناك عدد من الأواني الخشبية ودلال القهوة الفخارية وبعض البنادق التي يتم العناية بها كثيراً بحفظها في أكياس جلدية. في المساء اضطجعت على جلد البقر الذي تم دبغه جيداً. أما الغطاء فكان مصنوعاً من مجموعة من جلود الضأن الصغيرة تمت حياكتها معاً باحكام كتلك المستخدمة في بلاد النوبة.

تقع رأس كرا على امتداد مسافته حوالي ميلين ونصف أو ثلاثة أميال وعرضاً يبلغ ميلاً تقريباً. وفقاً لما يرويه العرب فإن الكثير من الأماكن باتجاه الجنوب التي تقوم بعض القبائل البدوية مثل هذيل بفلاحتها في أجزاء منفصلة من الجبل تماثل في خصوبتها وجمالها تلك الأماكن التي شاهدناها في سلسلة الجبال المذكورة آنفاً.

غادرنا رأس الكرا - والذي سيكون عالقاً بذاكرتي ما دمت أتحسس سحر المناظر الرومانسية - وسرنا لمدة ساعة في أرض قاحلة نصعد ونهبط قليلاً إلى أن وصلنا منحدراً شديداً استغرق منا نصف ساعة هبوطاً وضعف هذا الوقت صعوداً. كانت الصخور مكونة من الحجار الرملية بالكامل ومن قمة المرتفع يتم رؤية الطائف من مسافة. على بعد مسافة نصف ساعة من سفح الجبل دخلنا وادياً خصيباً يدعى وادي محرم يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مليء بأشجار الفاكهة ولكن يتم ري الحقول المزروعة بمياه الآبار وليس بواسطة الجداول الجارية.

من هذا المكان تبدأ منطقة الطائف وأرض قبيلة ثقيف التي كثيراً ما تتصارع فيما مضى في حروب مع قبيلة هذيل المجاورة. أخذ الوادي اسم محرم ذلك أن الحجاج والزائرين القاصدين مكة من الشرق يرتدون ملابس الإحرام من هذا المكان. توجد بركة صغيرة خربة بقرب الطريق. اعتادت قافلة الحجاج اليمنيين التي تدعى الحاج الكبسي، التي تسلك طريقاً بمحاذاة هذه الجبال أن تؤدي الطقوس الدينية هنا، لذلك يتم ملء هذه البركة بالماء للوضوء. يحصل مزارعو وادي محرم على الماء من آبارهم بواسطة دلاء من الجلد تعلق بطرف سلسلة من الحديد توضع حول بكرة ويربط الطرف الآخر ببقرة ثم تسير مسافة مناسبة من البئر لجر الدلو، بعد ذلك تعود وتسير بنفس المسار من جديد وهكذا دواليك. الأبقار التي رأيتها هنا، مثل كل أبقار الحجاز، صغيرة الحجم ولكنها ذات بنية متينة، لها قرون قصيرة

وحدبة على الظهر فوق أكتافها ترتفع حوالي خمسة بوصات ويبلغ طولها ستة بوصات، وهي تشبه إلى حد كبير في أوصافها الأبقار التي رأيتها بالقرب من النيل في بلاد النوبة. وفقاً للأهالي، تتقاطع وديان كثيرة مزروعة، مماثلة لوادي محرم، في سلسلة الجبال كلها من هذا المكان باتجاه الجنوب إلى المنطقة التي تبدأ فيها مزارع البن، وتتباعد تلك الأودية عن بعضها الآخر، تفصل بينها مساحة تتكون من تربة صخرية قاحلة.

من وادي محرم، عبرنا، مرة أخرى، أرضاً جبلية قاحلة وجدت بها الحجر الرملي والسيلكس(١). تظهر أشجار الأقاقيا في عدة أودية رملية متفرعة من الطريق. بعد ساعتين ونصف صعدنا رابية، ورأينا من على قمتها الطائف أمامنا التي وصلنا إليها بعد ثلاث ساعات ونصف من وادي محرم بعد عبورنا أرضاً رملية قاحلة تفصل الطائف عن الروابي المحيطة بها. لم يكن معدل مسيرتنا من مكة، حينما كنا لوحدنا على ظهور جمالنا نسارع خطواتها، أقل من ثلاثة أميال وربع في الساعة. وبناءً على ذلك فقد حسبت المسافة من مكة إلى سفح جبل كرا باثنين وثلاثين ميلا تقريباً وعشرة أميال إلى قمته ومنها إلى الطائف ثلاثين ميلاً، فتصبح المسافة الإجمالية اثنين وسبعين ميلاً، واتجاه الطريق من عرفات إلى الطائف حوالي اثنتي أو خمس عشرة درجة على البوصلة إلى الجنوب من ذلك من مكة إلى عرفات وبما أنه لم يكن معي بوصلة، فلا أستطيع تحديد الاتجاه بدقة تامة.

(١) السيلكس: نوع من الزجاج المقاوم للحرارة.